الانتلجسيا العراقية: بين غياب الدور وضعف الارادة

عطارد عوض عبد الحميد الشريفي*
أكاديمية وباحثة من العراق

* عضو مركز حمورابي ـ طالبة دكتوراه ـ جامعة بيروت العربية

يواجه العراق اليوم مرحلة حرجة ومنعطفاً صعباً في تاريخه، يتمثل هذا في تحديات الحفاظ على اللحمة الوطنية، عن طريق درء خطر الاختراقات الأمنية والتوتر الطائفي ومقاومة الإرهاب الوارد من خارجه، بمقابل ترشيد وتوجيه ومحاولة الوصول إلى تفاهم يوفق بين وجهات النظر والاجتهادات تجاه ذلك، فضلاً عن مواصلة السير في إكمال مسيرة العملية السياسية، وإقرار الديموقراطية في البلد، وتحقيق قدر من العدالة الاجتماعية لأبنائه، تتمثل في المشاركة السياسية وتقاسم الثروات واستغلالها، بما يخدم تنميته اجتماعيا وًصحياً واقتصادياً وفي باقي المجالات الأخرى.

ولتحقيق مثل هذه الأهداف نعتقد جازمين أن النخبة المثقفة المسماة الانتلجنسيا هي أقدر من غيرها، لو تحلت بالإرادة الذاتية للتغيير وتعديل مسارات المجتمع من جهة، وإتاحتها الفرصة ورفع القيود التعويقية لعملها من السلطة من جهة ثانية، لكي تقوم بخط المفاهيم التي توحد أبناءه، وترشد عصبياتهم المختلفة، وعدم تركهم فريسة لأيديولوجيات دينية ـ طائفية ـ سياسية، تستغل جهل العامة وأزماتهم الاقتصادية وصدماتهم الاجتماعية، التي تولدت عقب انهيار النظام المفاجئ واحتلال البلد، وما ترتب عليها من وقائع تتضاعف يوماً بعد آخر.

أن النخبة المثقفة المسماة الانتلجنسيا هي أقدر من غيرها، لو تحلت بالإرادة الذاتية للتغيير وتعديل مسارات المجتمع

ماهية الانتلجنسيا

الانتلجنسيا[1](Intelligentsia): هي الفئة المتعلمة الواعية المدركة بالضرورة

(1) أصل الانتلجيسيا: كلمة روسية، عنت وصف طبقة من المثقفين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مارست النقد الفكري للأوضاع القائمة، ورفضت النظام القائم آنذاك. نديم البيطار، المثقفون والثورة: الإنتلجنسيا كظاهرة تاريخية، ط1، دار بيسان، بيروت، 2001، ص12.

لمصالح أمتها وبلدها، وهي التي تسعى إلى فرض المشروعات الحضارية، والتي يؤطرها إنتاج أو استقدام التكنولوجيا من جهة، واقرار الديمقراطية في البلد من جهة أخرى، والتي تكفل العدالة الاجتماعية وتقود إلى تقدمه[2].

(2) المصدر السابق، المكان نفسه.

وبذلك يمكن وصفها بأنها: الشريحة التي تمتهن العمل الذهني، المعقد والإبداعي في معظمه وتشتغل بإدارة الانتاج وبتطوير الثقافة ونشرها.

وأن «الانتلجنسيا» تعمل على إعطاء ولائها للأفكار والمعرفة، وتمثل الجانب الخلاق في الفكر الاجتماعي السياسي، إنها تراقب، تدرس وتتأمل وتنظر وتحلل، وتنشغل نقدياً بالأفكار والقيم والتصورات الأيديولوجية، التي تجاوز المشاغل والمقاصد بالأفكار والتحليل الفكري والوقائع يكون منظراً، والذي ينشغل فقط بالأفكار المعيارية والتقويمية يكون أخلاقياً، وهو يصبح جزءاً من الأنتلجنسيا عندما يهتم بالنوعين ويوحدهما في إطار يرفض الأوضاع القائمة عن طريق الفكر المنضبط والمنظم. الانتلجنسيا تتميز إذاً عن المثقفين الآخرين في كونها كما يقولون في بعض الأوساط الفكرية الفرنسية لا تشكل (كلاب حراسة) لهذه الأوضاع، للنظام القائم، لما هو موجود، بل بالأحرى قوة نضالية في خدمة ما يجب أن يكون.

فالمثقف الذي يرتبط بالوضع الراهن، لا يستطيع فصل نفسه عنه وعن قيمه وافتراضاته ومنطلقاته ومؤسساته

فالمثقف الذي يرتبط بالوضع الراهن، لا يستطيع فصل نفسه عنه وعن قيمه وافتراضاته ومنطلقاته ومؤسساته، ومن ثم لا يستطيع القيام بتحليل موضوعي علمي نقدي حوله، أو ممارسة النقد الجذري له، إنه يكون ملتزماً به بشكل مباشر أو غير مباشر، ويجد عقلنة لهُ في ضوء تسويغ فكري يضفي عليه الشرعية الأيديولوجية، وهذا يعني أن يكون مثقفاً دون الوعي الأصيل الذي يميز أو يجب أن يميز المثقف وليس الانتلجنسيا فقط، وذلك لأن هذا الوعي، الوعي غير المزور الذي كان القوة المحركة لتطور الفكر الإنساني نفسه، يعني في ذاته فيما يعنيه ما يأتي:

قدرة الإنسان على الخروج من الذات والوسط الخارجي كله أو في بعض جوانبهما الأساسية، وكأنه ليس جزءاً منهما لتحليلهما وتقويمهما، ومن ثم رفضهما جزئياً أو كلياً في ضوء جديد، هذا هو عنصر الوعي الأساسي[3].

(3) نديم البيطار، مصطلحات ثقافية: الانتلجيسيا، شبكة النبأ، ص1. www.annabaa.org/nbanews/67/534.htm

العلاقة بين الانتلجيسيا والسلطة

هناك جدال الثقافي حول تشخيصات العلاقة بين الثقافة(الانتلجيسيا) والسلطة، يمكن تلخيصها لدى الكتاب العرب بمحورية ثلاثية الاتجاهات، أو أنها محكومة بمدارس ثلاث[4]:

(4) منصور بن عبد الجليل القطري، تربية الحرية بين ثقافة القصور وثقافة الشارع، الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، بيروت، 2012، ص34.

1 ـ **مدرسة الحداثة**: وتعتمد هذه المدرسة الرؤية الديكارتية لوظيفة المفكر، فترى المثقف ناقداً اجتماعياً يسعى إلى نقد الممارسات الاجتماعية، انطلاقاً من مرجعية نظرية محددة.

2 ـ **المدرسة الماركسية**: وترى هذه المدرسة أن الفكر سلاح يستخدمه المفكر للدفاع عن مصالح الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها ويمثلها.

3 ـ **مدرسة ما بعد الحداثة**: وهي المدرسة التي تشدد على أن المثقف أسير هواجسه السلطوية، وأن مهمة الفكر تفكيك وإظهار التناقضات الداخلية والهاجس السياسي للمثقف.

الحكم الديمقراطي أو الشعبي لا يستطيع في كل الأحوال أن يخفض صوت الفكر الحر قهراً أو غصباً

ولمكانة الانتلجنسيا من السلطة يقول الروائي توفيق الحكيم: الحكم الديمقراطي أو الشعبي لا يستطيع في كل الأحوال أن يخفض صوت الفكر الحر قهراً أو غصباً، ولكنه يستطيع أن يلغي وجوده إلغاءً، بأن يستدرجه إلى حظيرة السياسة العملية. ومتى دخل رجل الفكر تلك الحظيرة فقد بطل نقده وتفسيره وتوجيهه. فواجب رجل الفكر إذاً: أن يحافظ على كيان الفكر وأن يصون وجوده الذاتي حراً مستقلاً[5].

(5) نديم البيطار، مصدر سابق، ص2.

فيجب على شريحة الانتلجنيسيا، أن تتعامل بالأفكار على سبيل التفاعل، وتتعاطى بالمعرفة العقلانية على سبيل التواصل، وتنخرط بالمنهجيات النقدية على سبيل التداول، واضعة نصب عينها بديهية مسلمة، وقد صاغها المفكر عبدالله العروي بأن(الثقافة لا يمكن أن تتقلص إلى الأيديولوجيا)[6].

(6) نقلاً عن: ثامر عباس، الانتلجنسيا المشرقية ولوثنة الايديولوجيا المثقف العراق (انموذجاً)، المركز الخبري للأعلام العراقي، على الموقع: http:// www.kitabat.com/ar/page/19/11/ 2013.

فهناك أراء حول الآدوار التي يمكن ان يؤديها المثقف في تعاملاته، فالبعض يرى وجوب انخراط المثقف في حركة اجتماعية منظمة، أو أن يتولى القيادة الفكرية في إحدى مجالات الحياة العامة، والبعض الآخر يرى أن المثقف لا بّد من أن يكون بمثابة فيلسوف، فتكون له مواقف أيديولوجية

أن المثقف لا بّد من أن يكون بمثابة فيلسوف، فتكون له مواقف أيديولوجية واضحة

واضحة، إلّا أن البعض الآخر يرى أن يقتصر على إنتاج الأفكار المجردة المفصولة عن الشؤون الثقافية العامة، ولا يرى ضرورة لكل ما ذكر آنفاً، فالعادة في الأحاديث الجارية عن المثقفين لا تشترط فيهم هذه الشروط، وإن كانت تعطي لهم مكانة اجتماعية خاصة. ويرى أيضاً أن إثراء أوساط المثقفين بالقادة الفكريين والفلاسفة أمر يتغير بحسب الظروف العديدة .

إن الثقافة في العصر الحاضر، قد أصبحت بضاعة ذات قيمة، وأسواق هذه السلعة، الجامعات والأحزاب والتجمعات الأدبية والمنابر الإعلامية بكافة أشكالها، وحلقات المناقشة من مؤتمرات وندوات وجمعيات مهنية، وذلك بحثاً في ما يمكن أن يقدمه المتعلمون للمجتمع من حلول لمشكلاتهم، وما يثيرونه من مناقشات في التجمعات والمحاضرات والمنابر الإعلامية. ومن هنا تتحدد هوية المثقف، إننا لا نتجاوز الحقيقة إذا أكدنا أن المثقفين في المجتمعات الحرة، وخصوصاً أنهم قد قدموا أدواراً ممتازة في الحياة السياسية، برغم كونهم في واقع المجتمعات الاستبدادية أدوا أدواراً احتجاجية حاسمة.

ويمكننا تشبيه الفيلسوف أو (الانتلجيسي) بسائق القطار الذي يعرف أن يقود مجتمعه، وأي طريق يسلك، وأين يتوقف، وأين يمضي بأقصى سرعته، فأن الرجل المتحمس هو البخار اللازم للقطار حتى تمضي في طريقها[7].

(7) شوقي ناجي جواد، جليس المتأمل: تعليم بلا ثقافة روحية لا جدوى منه، مطبعة الراية، بغداد1990، ص39.

وأن الحالة العراقية على الرغم من خزينها السيء والدوافع الى التشرذم الاجتماعي، إلا أن الانعطافات التاريخية الكبرى في مسيرة أيَّ شعب، لا بّد أن تدفع القوى الحية فيه إلى تبني خيارات الحفاظ على الهوية الجمعية للمجتمع، وأن تنبري الشرائح الاجتماعية المختلفة وعلى رأسها شريحة الانتلجنيسيا إلى اجتراح الحلول للاستظلال بظلال الجامع الوطني، إلا أن صعود القوى المعارضة لسدة السلطة بعد إسقاط النظام، برغم من توافقاتها تحت ضغط الولايات المتحدة وبريطانية في مؤتمري (لندن وصلاح الدين)، قد كشف عن عجزها عن الوفاء أو الأيفاء بوعودها في إعادة بناء الانتماء والمواطنة والهوية الوطنية وأعلاء سلطة القانون، وعلية فأن

العوامل السياسية هي التي أضرت بشكل مباشر بالمواطنة والانتماء والهوية، وبشكل يفوق العوامل الأخرى

العوامل السياسية هي التي أضرت بشكل مباشر بالمواطنة والانتماء والهوية، وبشكل يفوق العوامل الأخرى رغم أهميتها[8].

فعلى السلطة السياسية العراقي، الركون إلى طبقة الانتلجيسيا التي تتميز بالكفاءة والمهنية كأساس لتولي المناصب في ادارة الدولة، وهو ما سيحجم الارتكاز على الطائفية والعرقية في تقاسيم الأحزاب والمكونات للنفوذ في مؤسسات الدولة العراقية الحديثة[9] .

(8) عبد علي المعموري، إشكاليات الانتماء والهوية الوطنية في مجتمعات التنوع (حالة العراق)، مجلة حمورابي للدراسات، مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية، بغداد ـ بيروت، العدد(8)، السنة الثانية، كانون أول/ ديسمبر2013، ص139.

(9) المصدر السابق، ص146.

الخاتمة

على الرغم من وجود العديد من التحديات التي تواجه مسار عمل طبقة الانتلجيسيا العراقية (الذاتية والموضوعية)، والتي يمكن وصفها بأنها تحديات من نوع جديد، تتمثل بثورة المعلومات والتقنيات الالكترونية، والتي أصبحت عنواناً للنهضة والتطور في القرن الحادي والعشرون، إذ إنها تحتاج إلى ضرورات الأنتاج وامتلاك العقل المفكر والمتطور والعلم والاتصال مع شبكات الاتصالات العالمية هذه من جهة. وغياب الدور الحقيقي الموكل إليها من السلطة من جهة ثانية.

إلا أن الانتلجيسيا العراقية هي القادرة على النهوض بالواقع العراقي، ومواجهة الإزمات الداخلية المجتمعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتحديات الدولية، عن طريق ما يأتي:

- إرساء أسس الديمقراطية والعدالة، ونبذ العنف والتعصب بكل انواعه، وإشاعة روح التسامح والولاء للوطن، والاحساس بالمواطنة والانتماء، واحترام المغايرة الثقافية والرأي الاخر، وحقوق المرأة والطفل، والرفق بالحيوان، وحماية البيئة، واحترام القانون وغيرها.
- المساعدة في إشاعة الأمن والأمان المفتقد في أغلب عراقنا، والذي يعد جزءاً جوهرياً في تقدم المجتمع بمختلف جوانبه، من خلال استمرارها بممارسة الضغط على الحكومة العراقية، أي تفعيل أرادة هذه الطبقة بالتصدي للحكومة المغيبة لدورها، لغرض تطوير آليات ذلك وتجسيدها على أرض الواقع.

تفعيل أرادة هذه الطبقة بالتصدي للحكومة المغيبة لدورها، لغرض تطوير آليات ذلك وتجسيدها على أرض الواقع

- كما ينبغي على هذه الطبقة ممارسة دورها في الكشف عن العابثين بأمن البلاد، ومن ورائهم تلك الاطراف التي تدعمهم بالكلمة أو بالمال أو بالسلاح.
- دور هذه الطبقة في توعية المجتمع العراقي بفئاته المتعددة، من خلال مساعدتها في تنظيم نفسها، لتشكل جماعات ضغط سلمية على الجهات الحكومية لغرض الحصول على حقوقها، وتوعيتها بمسؤولياتها والواجبات التي تقع على عاتقها.
- ممارسة المثقف للنقد البناء في الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي وحتى الثقافي، رغبة في كشف الحقيقة، وتحديد وتفكيك وتحليل القضايا، لتجاوز العوائق التي تقف أمام تحقيق الهدف المنشود تحقيقه.

ممارسة المثقف للنقد البناء في الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي وحتى الثقافي، رغبة في كشف الحقيقة

- دور المثقف العراقي في رسم مستقبل أفضل، وسد أبواب التشاؤم والصورة السوداوية التي تمارس ضد المجتمع العراقي بشكل عام، والعملية السياسية في العراق بشكل خاص.
- وبذلك تكون فئة الانتلجنسيا العراقية، قد فعلت دورها المغيب عن طريق تحفيز ارادتها للعب دور مؤثر في المجتمع .